

٥- ابن شهيد وابن حزم

وتتراءى لنا خلال فترة الانتقال من العصر الأموي إلى عصور الطوائف شخصيتان عظيمتان من أظهر أعلام الثقافة الأندلسية، هما أبو عامر بن شهيد وأبو محمد بن حزم.

ولقد قُسمَ لكلا الرجلين أن يرى بعينه سقوط الخلافة الأموية وَيَعْبُرَ بالفترة المحزنة التي صاحبت هذا السقوط، ويبكى في كلامه وشعره ما أصاب قصور الخلافة في قرطبة من خراب ودمار، وعرف كل منهما كيف يعرض علينا في أسلوبه الخاص أصالة النفس الأموية وتبُّلها خلال أخطر أزمة عبر بها الأندلس الإسلامي في تاريخه.

فأما أبو عامر بن شهيد (٣٨٢ - ٤٢٧ هـ / ٩٩٢ - ١٠٣٥ م) فهو يمثل في نظرنا رجل الفكر الصَّرف. نشأ في بيت عريق فلم يصبح الأدب في يده خدمة بل سيادة، وتتراءى لنا في شعره بين الفينة والفينة لمحات ذات وقع حديث. وأما عن جانبه النقدي فقد خلَّف لنا «رسالة التوابع والزوابع» التي صوِّرَ فيها رحلة شاعر إلى الجنة، سابقاً بذلك (المعري، ودانتي) إلى ذلك الموضوع. وتعرض للأذى من ملوك الطوائف، وألمَّ به بعد ذلك داء عضال عانى مرارته في صبر المتصوِّف ورضاه، وووِّرِيَ التراب في مقبرة «الخير» في حدائق قرطبة، فرقد رقدة الأبد تحت الزهور.

ومن بديع شعره قطعة البالغة الجمال المسماة «بعدلية أنس»^(١) ومنها هذه الأبيات:

(١) اختار لها هذا الاسم «غرسية غومس» عندما ترجمها إلى الإسبانية في مختاراته (قطعة رقم ٤٧، ص ١١٢).

ولمَّاتَمَدَّدَ مِنْ سُكْرِهِ ونَامَ، وَنَامَتْ عَيُونُ الْعَسْرِ
دَنَوْتُ إِلَيْهِ عَلَى قُرْبِهِ دُنُوٌّ رَفِيقٍ إِذَا مَا التَّمَسَ
أَدْبُ إِلَيْهِ دَيْبَ الْكَرَى وَأَسْمُو إِلَيْهِ سُمُو النَّفْسِ
أَقْبَلُ مِنْهُ بَيَاضَ الطَّلَى وَأَرَشَفُ مِنْهُ سَوَادَ اللَّعْسِ
فَبْتُ بِهِ لَيْلَتِي نَاعِمًا إِلَى أَنْ تَبَسَّمَ ثَغْرُ الْغَلَسِ^(١)

ومنه هذان البيتان يصف فيهما «العاصفة»:

وَقَدْ فَعَرْتُ فَاهَا دُجَى كُلِّ زَهْرَةٍ إِلَى كُلِّ ضَرْعٍ لِلْغَمَامَةِ حَافِلِ
وَمَرَّتْ جِيوشُ الْمَزْنِ رَهْوًا كَأَنَّهَا عَسَاكِرُ زَنْجٍ مَذْهَبَاتُ الْمَنَاصِلِ

وأما أبو محمد بن حزم (٣٨٤ - ٤٥٥هـ / ٩٩٤ - ١٠٦٣م)، الذى عرف وطنه - إسبانيا - قدره الصحيح الذى يستحقه بفضل آسين بلاثيوس وما كتبه عنه، فإن حياته تعتبر رمزاً على حياة الأندلس على أيامه. كان شاباً أنيقاً ينتسب إلى بيت رفيع من موالى بنى أمية، دخل ميدان السياسة وهو بعد فى مطالع الشباب، وعانى أوصاب النفى، واشترك فى المؤامرات والتدبيرات التى توالى فيما بعد، ثم أصبح آخر الأمر مفكراً غضب اللسان وجواب آفاق ينازل العلماء والفقهاء، ويتحدى بجدله العنيف آراء فى الفقه والفلسفة والدين، كانت متأصلة فى عقول الناس، حتى لقد سمى نفسه فى أحد كتبه «رجلاً جدلياً»، بل «جدلياً جَوَّالاً» لا يقرُّ فى مكان، ويصدق عليه قوله:

لَمْ تَسْتَقِرَّ بِهِ دَارٌ وَلَا وَطَنٌ وَلَا تَدَقَّ مِنْهُ قَطُّ مُضْجَعُهُ
كَأَنَّمَا صَبِغَ مِنْ رَهْوِ السَّحَابِ فَمَا تَزَالُ رِيحٌ إِلَى الْآفَاقِ تَدْفَعُهُ^(٢)

(١) المقرئ: «نفع الطيب»، ج ٢، ص ١٣٣.

(٢) ابن حزم: «طوق الحمامة» (طبعة الصيرفى، القاهرة - ١٩٥٠م) ص ٨٢.

وكتابات ابن حزم وتواليافه لا تُحصى كثرةً، ويتجلّى من بين مؤلفاته العلمية تاريخ الأديان المسمى «الفصل» وقد تُرجم إلى الإسبانية، ومن بين آثاره الأدبية تبرز اعترافاته التى ضمَّنها كتاب «الخصال» وهو كتاب فيه عمق وعنف، وأحسن تواليافه فى هذه الناحية كتابه عن الحب المسمى «طوق الحمامة» ومقامه فى الأندلس مقام كتاب «الحياة الجديدة Vita Nova» لدانتى فى إيطاليا؛ وهو طاقة زهر أريجة من الأقاصيص ومقطّعات الشعر والتحليل النفسى الخلقى للحب. وشعره ينم تارة عن عاطفة حارة مشبوبة كقولهِ:

وددتُ بأنَّ القلبَ شُقَّ بمديّةٍ	وأدخلتِ فيه، ثم يُطبّقُ فى صدرى
فأصبحتِ فيه، لا تحلّينَ غيرَهُ	إلى مُقتضى يومِ القيامةِ والحشرِ
تعيشينَ فيه ما حييتُ، فإنْ أُمْتُ	سَكنتِ شغافَ القلبِ فى ظلمِ القبرِ ^(١)

وتارة أخرى يحلّق عند قمم التجريد الذهنى، وهو أمر غير مألوف فى الشعر الأندلسى كقولهِ:

أَمِنْ عَالَمِ الْأَمْلاكِ أَنْتَ أَمْ إِنْسَى	أَبْنُ لى، فَقَدْ أَرَى يَتَمَيَّزَى الْعَى
أَرَى هَيَاةً إِنْسِيَّةً، غَيْرَ أَنَّهُ	إِذَا أَعْمَلَ التَّفَكِيرَ فَالْجِرْمُ عَلَوَى
تَبَارَكَ مَنْ سَوَى مَذَاهِبَ خَلْقِهِ	عَلَى أَنَّكَ النُّورُ الْأَنِيقُ الطَّبِيعَى
وَلَا شَكَّ عِنْدِي أَنَّكَ الرُّوحُ سَاقَهُ	إِلَيْنَا مِثَالُ فِى النُّفُوسِ اتِّصَالَى
عَدَمْنَا دَلِيلًا فِى حَدُوثِكَ شَاهِدًا	نَقِيسُ عَلَيْهِ، غَيْرَ أَنَّكَ مَرْنَى

(١) نفس المصدر، ص ٦٣.

وَلَوْ لَا وَقُوعُ الْعَيْنِ فِي الْكَوْنِ لَمْ نَقُلْ سِوَى أَنَّكَ الْعَقْلُ الرَّفِيعُ الْحَقِيقِيُّ^(١)

ولقد كان أندلسيًا خالصًا، وهذا قوله يدل عليه:

وَيَا جَوْهَرَ الصِّينِ سُحْقًا! فَقَدْ غَنَيْتُ بِيَاقُوتَةِ الْأَنْدَلُسِ

* * *

(١) نفس المصدر، ص ١٠.